# السحر وعلاقته بالدين

## عند الشعوب البدائية

بقلم

الدكتور السيد محمد بدوى

مدرس علم الاجتماع

مقـــدمة :

كانت مسألة العلاقة بين الســحر والدين من أهم المســائل التى شغلت أذهـان الباحثين الاجتماعيين منذ أن خطت الأبحاث الاجتماعية خطوتها الأولى فى دراســة الشعوب البدائية . فأثار العلامة فريزر Frazer هذه المسألة فى مؤلفاته الضخمــة التى تعد من أهم المراجع وأدسمها مادة فى دراسة الشعوب البدائية (١) وحاول أن يحدد بالدقة ماهية هذه العلاقة ومدي تأثير السحر فى مظاهر الحياة الاجتماعية . ثم جاء بعده كودرنجتون Codrington (٢) ودرس فكرة ال (مانا) Le Mana أو القوة السحرية عند الشعوب البدائية . ومنذ ذلك الحين ظلت هذه المسألة مثار النقاش والجدل لا بين علماء الاجتماع فحسب بل وأيضا بين المؤرخين ورجال القانون والفلاسفة وعلماء اللاهوت فاهتمت كل طائفة من هؤلاء ببحث ناحية خاصة من المسألة . ووجه علماء المدرسة الفرنسية من أنصار دوركيم اهتماما خاصا لدراسة مسألة السحر بوجه عام والى تحديد مدي تأثير العقيدة السحرية على الناحية التشريعية بوجه

(١) أهم مؤلفات فريزر هي *The Golden Bough* 3ème édit. en 7 Vol. 1911-15.
*The Magic Origines of Royalty* 1905.
*La Tâche de Psyché*; trad. Française 1909.

(٢) وصف كودرنجتون عقيدة المانا فى كتابه Codrington: *The Melanesians* 1891.

خاص . ومن علماء هذه المدرسة الذين اشتغلوا بهذه المسألة مـوس Mauss[١] و هوفلان Huvelin [٢] كما ساهم في بحثها أيضا العلامة ليفي برول Levy-Bruhl وتعرض لها من نواحي مختلفة في كتبه عن العقلية البدائية [٣] .

ولـكن على الرغم من كثرة هذه الابحاث والتفسيرات المختلفة التي استعـان فيها أصحابها بالتعليل المنطقي الى جانب ما جمعوه من الوثائق والمعلومات عن حياة الشعوب البدائية فان المسألة الرئيسية وهي تحديد العلاقة الحقيقية بين السحر والدين ومعرفة الوظيفة التي يؤديها السحر في حياة المجتمعات البدائية من حيث علاقته بنشأة الفن والعلم والأخلاق والتشريع كل هذه المسائل ظلت موضع خلاف بين الباحثين ولم يصلوا فيها بعد الي رأي نهائي .

فمنهم من يقول بأن السحر نشأ عن الدين بعد أن أفسد بعض عناصره الأخلاقية وحولها الى ناحية الشر ومن أنصار هذا المذهب آلبيه Allier [٤]. أو أنه نتيجة لبزوغ فكرة الفردية بعد أن كان الطابع الجمعي يسيطر على المجتمعات البدائية وأيـد هذه الفكرة دوركيم [٥] وهوفلان . ومنهم من يعتقد على العكس بأن الدين هـو الذى خرج عن السحر ومن هؤلاء العلامة فريزر . كما أن هناك طائفة ثالثـة وعلى رأسها ليفي برول تعتقد أن محاولة فصل السحر عن الدين أو القول بسبق أحـدهما على الآخر إن هي الا محاولة عقيمة فالسحر والدين مظهران لفكرة واحدة أوظاهرة

---

(١) راجع مقال موس وهوبرت في المجلة الفرنسية لعلم الاجتماع

Mauss: *Esquise d'une théorie générale de la magie* (en collaboration avec Hubert). Année-Sociologique 1902-1903.

(٢) Huvelin: *La Magie et le Droit individuel* (Année Soc. 1906).

(٣) Lévy-Bruhl: *La mythologie Primitive*, Paris 1936.
*L'Expérience mystique et les Symboles chez les Primitifs*, Paris Alcan 1938.

(٤) Allier: *Magie et Religion* 1938 pp. 22 et suiv.

(٥) Durkheim: *Les formes élémentaires de la vie Religieuse* 1912.

خاصة تميزت بها عقلية الشعوب البدائية وسماها ليفى برول « ظاهرة ما قبل التدين «Pré-religion»(١)

وسنحاول فى هذا البحث أن ندرس أهم النظريات فى هذا الموضوع دراسة نقدية لنخلص منها الى اثبات حقيقة اخرى : وهى أن السحر والدين ظاهرتان لاصلة لأحداهما بالأخري من حيث الأصل وأن كلا منهما تقوم علي أسس نفسية تختلف عن الأخري .

وقبل أن نخوض في بحث الموضوع نحب أن ننبه الأذهان الى أن كلمة «سحر» في العربية يقابلها في اللغات الأوربية لفظتا magie ، Sorcellerie كما أن كلمة «ساحر» يقابلها لفظتا magicien ، Sorcier. وتعبر لفظة Sorcellerie بوجه خاص عما يسمونه أحيانا السحر الأسود La magie noire. الذى يكون مقصده الوحيد احداث الضرر ببعض الافراد . أما السحر بوجه عام فهو وظيفة اجتماعية تتلخص في القيام بشعائر خاصة لجلب الخير للمجتمع أو درء الخطر عنه كالشعائر التي تقام لجلب المطر حين يعم الجدب أو لدفع خطر عدو مغير أو لشفاء مريض الخ ....

نظرية جيمس فريزر :

تسمى هذه النظرية بالنظرية العقلية Théorie intellectualiste وذلك لأن فريزر أراد أن يفسر ظاهرة السحر عند البدائيين بالرجوع الى أسس عقلية لادخل للعاطفة فيها . فنسب الى البدائيين أنهم توصلوا الي ادراك انتظام الظواهر الطبيعية وتتابعها فى تسلسل لاشذوذ فيه . ثم قال بأنهم فسروا هذا الانتظام بنوع من التأثير العاطفى بين الأشياء Sympathie (٢) ثم قام السحر بعد ذلك على تطبيق قوانين

(١) وقد نحا ليفى برول هذا النحو فيما يتعلق بالتفكير أو التعليل النطقي توصف العقلية البدائية بأنها "prélogique". راجع كتابه *La Mentalité Primitive*

(٢) *Rameau d'Or* (Trad. Franç. de Golden Bough) p. 5 et suiv.

هذا التأثير العاطفي : وهي قانون المشابهة Loi de similarité وقانون الاتصال Loi de Contiguïté. «فالشبيه يؤثر فى الشبيه ، والأشياء التى كانت بينها صلة ثم انقطعت يظل يؤثر بعضها فى البعض كما لو كان الاتصال بينها ما زال قائما . كما أن التأثير ينتقل من قريب الى قريبه ومن الصورة الى ماترمز اليه ومن الجزء الي الكل » (١)

فالسحر فى نظر فريزر تطبيق وهمي لترابط المعاني عن طريق المشابهة والاتصال. هو علم science سابق لأوانه ولكنه علم يقوم على البهتان أو اذا شئت فانه فن عقيم أو نوع من الخرافة يستغلها المكرة وذووا الدهاء من أهل القبيلة للتسلط على عقول الافراد واخضاعهم لسلطانهم .

ولكن هذه الخرافة كانت فى نظر فريزر ذات نتائج بعيدة المدى فمنها خرج العلم والفن كما أنها أصل العقيدة الدينية . أما كيف نشأ العلم عن السحر فان فريزر يوضح ذلك بقوله ان السحر فى مظهره الخالص يقوم على الاعتراف بأن الاحداث الطبيعية تتتابع بالضرورة دون الحاجة الى تدخل عامل روحى أو مادى . وهذا المبدأ هو بعينه المبدأ الذى يقوم عليه العلم الحديث : مبدأ النظام ووحدة القوانين الطبيعية . فالساحر مقتنع تمام الاقتناع بأن العلة الواحدة لا يمكن أن تصدر عنها الا نتيجة واحدة وهو لا يمارس فنه الا إذا سار وفق قوانين الطبيعة على قدر فهمه لها. ولا يتوسل الى كائن آخر أقوي منه أو أكثر سلطانا كما يفعل الكاهن أمام معبوده ولا يخفي هامته أمام جبروت الآلهة . هذا التشابه بين المبدأ الذى يقوم عليه السحر والمبدأ الذى يقوم عليه العلم هو الذى حدا بفريزر الى القول بأن العلم وليد السحر فكلاهما ينظر الى ما يحدث في الطبيعة لا على أنه وليد الصدف أو الأهواء الشخصية بل على أنه ناتج عن قوانين ثابتة تتتابع في نظام آلى. (٢)

(١) *Origines Magique de la Royauté* (Trad. franç.). pp. 35-38.
(٢) *Rameau d'Or* I. p. 64-65.

ولما كانت حياة القبيلة البدائية لا تستطيع أن تقوم بغير أداء بعض الشعائر السحرية من حين لآخر ، فقد أصبحت طبقة السحرة فى مركز ممتاز ، واقتصرت هذه المهنة بطبيعة الحال على أكثر أفراد القبيلة ذكاء وأشدهم دهاء . وكان تحررهم من القيام بأعباء الحياة المادية مما ساعد كثيرا على تفرغهم لبعض الأبحاث العلمية . هؤلاء السحرة أمثال صانع المطر والطبيب المشعوذ والساحر الزراعي والساحر المتنبيء هؤلاء جميعا هم أسلاف أطبائنا وجراحينا بل ومخترعينا في الوقت الحاضر (١) فالسحر ولو أنه وليد الجهل والوهم الا أنه أبو الحقيقة والحرية فقد ساعد كثيرا على تحرير الانسان من عبودية التقاليد .

أما عن علاقة السحر بالدين — وهو موضوع بحثنا — فان فريزر ينوه فى باديء الأمر بما بين الظاهرتين من تنافر في المظهر الخارجى . فأهم ما يميز الدين على حد قوله « الضراعة والتوسل من جانب الانسان نحو قوة عليا يعتقد أنها تسيطر على شئون الطبيعة وعلى حياته . وهذه الصفة وحدها قد تكون كافية لتظهر لنا تعارض الدين مع السحر والعلم على السواء (٢) فموقف الساحر هو موقف الأمر المتحكم . أما رجل الدين فانه يضرع ويتوسل وذلك لأن الأول يشعر أنه يواجه قوى قد تكون مماثلة له في طبيعتها أو أقل منه على حين أن الثاني مقتنع تماما بأنه يتوجه نحو قوة عليا خارجة عنه transcendante وتتحكم في مصيره . هذا التعارض بين موقفى الدين والسحر يفسر لنا العداء المستحكم الذى كان ينشب فى مختلف العصور بين السحرة والكهنة . فان غطرسة السحرة واستخفافهم بالقوي التي تسيطر على الطبيعة جلبت عليهم سخط رجال الدين الذين كانوا يقارنون هذا التحدى بخضوعهم وضعفهم أمام الشعور بعظمة الآلهة . ومما زاد هذ الشعور بالسخط ما كانوا

(١) *Origine magique...* pp. 93-95.
(٢) *Rameau d'Or* pp. 66-67.

يشاهدونه من ثراء السحرة وتمتعهم بالجاه والسلطان دون عناء علي حين أنهم كانوا يقضون العمر فى التقشف وتعذيب النفس ويقطعون مرحلة طويلة شاقة في سبيل الوصول الى رضا الله والدخول فى رحمته .

ولكن فريزر يعود فيؤكد لنا أنه بالرغم من هذا الخلاف الظاهرى بين السحر والدين فان السحر هو الظاهرة الاجتماعية التي سبقت الدين من حيث الظهور وهو الأساس الذي نشأت عنه العقيدة الدينية . فقد نشأ الدين من أخطاء السحر وفشله فى كثير من محاولاته . إذ ظل الانسان مدة طويلة يعتقد أنه يستطيع بنوع من الخيال والاقتناع العقلي أن يكيف الأشياء كيف يشاء وأن يتحكم فى القوي الطبيعية كما يتحكم فى حركاته وسكناته ولكنه ما لبث أن اصطدم بمقاومة الظواهر الطبيعية له وعدم سيرها طوع بنانه . فعزى ذلك الي وجود قوى خفية خارجة عنه أطلق عليها اسم «الآلهة» ونسب اليها القوة والعظمة والمقدرة . ثم اضطرته هذه الصفات الى أن يقف منها موقف الخضوع والخشوع والي أن يتزلف اليها بالقرابين والصلوات والأدعية . ويدعم فريزر نظريته هذه بأسباب ثلاث :

(١) أن السحر بشعائره وطرقه واحد أينما وجد . واحد من حيث مبدؤه ومن حيث تطبيقاته العملية علي حين اختلفت الديانات حسب المجتمعات التي نشأت فيها والعصور التي ظهرت فيها . فكلية السحر Universalité وخصوصية الدين particularisation سببها أن السحر هو الطبقة الأكثر عمقا أو الجذور الأصيلة التي تفرعت عنها الديانات .

(٢) تتميز الظواهر السحرية بأنها بسيطة أولية على حين أن العقائد الدينية وما يتبعها من شعائر وطقوس تمتاز بطابع التعقيد الذي يرتكز في غالب الأمر علي تقدم الفكر . فقد اكتشف الانسان بعد ممارسة السحر أزمانا أن السحر قد يخفق فى كثير من الأحيان وحينئذ بدأ يشعر بضعفه وجهله وبقوته المحدودة . فمهد هذا الشعور

لظهور الديانات التي ما لبثت أن تغلبت على السحر وظهرت عليه .

(٣) نلاحظ فى بعض الديانات اختلاط شعائرها ببعض عناصر السحر كأن تحتوى هذه الشعائر مثلا على صيغة الرجاء والأمر معا . ولا بد أن يكون ذلك قد حدث فى عصر الانتقال من السحر الى الدين فتعلقت بعض عناصر السحر بالعقائد الدينية وأصبحت جزءا منها . وأعظم مظهر لذلك الامتزاج ظهور الرجال الآلهة فى كثير من المدنيات الغابرة Les hommes-Dieux حيث كان الحاكم يجمع بين صفات الساحر والاله والملك (١).

***

أظهرت لنا الدراسات الحديثة وخصوصا دراسات ليفي برول خطأ فريزر الأساسى من حيث المنهج méthodologique . فقد بنى نظريته وما علق بها من تفسيرات مختلفة على مبادىء عقلية أومقولات Catégories تختص بها عقلية الشعوب المتحضرة وأراد تطبيق هذه المبادىء على العقلية البدائية . فنراه يتحدث عن التشابه Similitude والاتصال contiguité ، التناسق Ordre ، العلية Causalité دون أن يفرق بين ما قد يفهمه البدائى عن هذه المقولات وبين فكرة المتحضر عنها في الوقت الحاضر . ولذلك فانه قد نزع عن السحر كل عنصر عاطفي على حين أن أهم ما يميز العقلية البدائية خضوعها لنوع من القوة الخفية لا تخضع لسلطان العقل وقد عبر ليفي برول عن ذلك بقوله ان العقلية البدائية تخضع لسلطان الروح pensée mystique (٢) فالبدائي يعتقد أن هناك قوي خفية تؤثر فى الأشياء تأثيرا قد لاتدركه الحواس ولكنه مع ذلك حقيقي ويعتقد كذلك أن هناك صلة خفية بين الأشياء وأن الشيء يمكن أن يكون هو وشيئا آخر فى وقت واحد (٣)

(١) Ibid. pp. 84-136.

(٢) راجع كتابه عن العقلية البدائية *La Mentalité primitive*

(٣) اطلق ليفى برول علي هذا النوع الاخير من التفكير البدائى اسم «قانون المشاركة» Loi de participation, وهو يناقض المبدأ المعروف فى المنطق باسم «مبدأ الهوية» Principe d'Identité.

كما أظهرت لنا دراسات موس وهوبرت عن موقف الساحر ووصفهما المسهب للشعائر والأفعال السحرية (١) خطأ فريزر فى اعتقاده أن الساحر شخص ماكر يستغل سذاجة الأفراد أى أنه يعتمد أولا وقبل كل شيء على عقله في التأثير عليهم. فالحقيقة التي أثبتها البحث وأثبتتها المشاهدة أن الساحر يكون أثناء تأدية عمله في حالة ذهول وغيبوبة كالتي يقع فيها المتصوف حين تنتابه نوبة الاشراق فيغيب عن وعيه ولا يشعر بالمؤثرات الخارجية ويأتي بحركات غير ارادية . وهذه الحالة التى تعتريه Etat d'extase, de catalepsie تنتقل عن طريق التأثير وبفعل البخور والطبول والرقصات التي تصاحب العمليات السحرية — الى من حوله من مريديه . فتنتابهم النوبة التى تنتابه وهذا شرط أساسى لنجاح عملية السحر .

ثم ان العمليات السحرية ليست من البساطة كما يدعي فريزر بل هى على العكس شديدة التعقيد وتستلزم لأدائها شروطا كثيرة منها ما يتعلق بالمكان الذي يراعى فيه أن يكون نائيا عن المساكن كالمقابر والكهوف والمستنقعات والغابات حيث تتخذ الأرواح والشياطين مقامها المختار . ومنها ما يتعلق بالزمان الذي يجب أن يحدد بعناية فائقة من حيث الساعة واليوم والشهر وفصل السنة ويستدعي ذلك طبعا إلماما تاما بحالة الكواكب وأوضاعها حتى ليقال إن بعض السحرة الهنود يعتقدون أن من الشعائر السحرية ما لا تواتى الظروف لأدائه الا مرة واحدة كل خمسة وأربعين سنة . ومنها أخيرا ما يتعلق باختيار أدوات السحر نفسها و كيفية تحضيرها. فالساحر الذى يريد أن يشفي مريضا يذهب لجمع أعشابه فى ليلة قمراء أو عند شروق الشمس ويجمعها بنظام خاص مستعملا في ذلك إبهامه وسبابته دون الأصابع الأخرى ويراعى ألا يمر ظله حين يسير على الأرض التي يختارها لجمع أعشابه إلى غير ذلك من الظروف والملابسات التى لا يتسع هذا المقال لسردها .

(١) انظر : L'Année Sociologique 1902-03, pp. 20-85.

على أن مضمون السحر ذاته وما يحتويه من رموز واستدعاء قوى خفيـة كل ذلك يخرج به عن صفة البساطة . فهو ليس إذن كما يدعى فريزر عمليـة عقليـة أو منطقية ولـكنه صور رمزية وانفعالات وتنزوع إلى نوع من الاتصال الروحى، حالة من حالات الضمير الجمعى لا يمكن تفسيرها تفسيرا عقليا وإنما يفسرها تحليل نفسية المجتمع ومعتقداته .

وقد وصل كودرنجتون Codrington من بحثه في هذه الناحية إلى اكتشاف فكرة الـ (مانا) Mana التى تخضع لها الظاهرة السحرية عند الشعوب الأولية :

عقيدة الـ (مانا) واتصالها بظاهرة السحر :

نظرية كودرنجتون:

عكف كودرنجتون على دراسة حضرة الشعوب الميلانيزية وهـداه بحثـه إلى اكتشاف عقيدة الـ (مانا) التي تسيطر على عقلية هذه الشعوب (١) وقـد عـرف هذه العقيدة بما يلى :

« يعتقد سكان ميلانيزيا فى وجود قوة متميزة تماما عن القوة المادية . وهـذه القوة تؤثر بطرق شتى إما لجلب الخير أو لجلب الشر . وهى تسهل كل شىء لمن يستطيع امتلاك زمامها ووضعها تحت سيطرته . هذه القوة هى الـ (مانا) : تأثيرهـا لا مادي ويمكن أن يقال إنه خارق للطبيعة surnaturel ولـكن نتائجه تظهـر على شكل مادى فتمنح القوة الجسمية أو الجاه أو السلطان . وهذه القـوة لا تكمن في شىء بذاته بل يمكن لمن يعرف سرها أن يجعلها تسري في كل شىء فهى العنصر الفعال الذي يمكن الفرد من السيطرة على قوة الطبيعة وتوجيهها كيف يشـاء . إذا امتلـكها الانسان استطاع جلب المطر أو الصحو ، الهدوء أو العـاصفـة . كما أنه

(١) شرح كودرنجتون هذا الاكتشاف في كتابه The Melanesians 1899 الذى ظهر بعد كتاب فريزر The Golden Bough بسنوات قليلة.

يستطيع أن يشفي مريضا أو يجلب المرض لسليم وأن يتنبأ بالمستقبل ويجلب السعادة لشخص أو يبعد عنه الشقاء . والاعتقاد فى هذه القوة هو أساس السحر والشعوذة . فالسحرة والطبيون والعرافة كل هؤلاء لا بد لهم من امتلاك هذه القوة» .(١)

يتضح لنا من هذا التعريف أن كودرنجتون يرى أن الـ (مانا) هى القوة السحرية ، وهو يطلق عليها فعلا في كتابه هذا الاسم «Magical power» . وهذه القوة ولو أنها خارقة للطبيعة surnaturelle إلا أنها كامنة فى الأشياء immanente أي أنها تتغلغل في كل شيء وتتحد به (وفي هذا ما يميزها عن القوة العلوية الخارجة La force transcendante) وفى استطاعة الانسان او الجماعة أن يسيطروا عليها ويستغلوها لقضاء مصالحهم .

هذا التمييز هو الخطوة الكبرى فى سبيل الاتجاه نحو التفرقة بين ظاهرة الدين وظاهرة السحر . وقد سار ليمان Lehmann ، مالينوفسكي Malinowski فى هذا الاتجاه حتى وصلا بعد تحليل عقيدة الـ (مانا) إلى اثبات هذه الحقيقة : وهى أن السحر والدين ظاهرتان متباينتان لا صلة بينهما من حيث الأصل ، بل إن كلا منهما تقوم على أسس نفسية مختلفة .

ليمان يواصل البحث فى عقيدة الـ (مانا) :

بعد أن وضع كودرنجتون أساس التفكير فى عقيدة الـ (مانا) عند سكان ميلانيزيا جاء بعده ليمان Lehmann أحد تلاميذ العلامة الألمانى فونت Wundt فواصل البحث فى هذه الناحية وأخرج لنا وصفا دقيقا شاملا لجميع مظاهر تلك العقيدة (٢). لاحظ ليمان عندما تعرض للبحث فى النواحى التطبيقية لهذه العقيدة أن

(١) The Melanesians, pp. 191 et suiv.

(٢) Lehmann : *Le Mana* 2ème édit. 1922.

هذا اللفظ (مانا) له معان كثيرة من الناحية اللغوية الصرفة (١).

فمعناه (أولا) في اللغة الميلانيزية يفكر ، يحب ، يرغب كما أنه يعني موضوع الشيء الذى تفكر فيه أو تحبه أو ترغبه — ثم هو يعني (ثانيا) النجاح والسعادة — (ثالثا) القوة الخارقة للطبيعة التي تقود الى النجاح والسعادة والتي نبحث عنها ونرغبها — (رابعا) المكانة الاجتماعية التى يتمتع بها شخص ما ومبلغ نفوذه فى المجتمع - (وأخيرا) التأثير الخفى الذى ينتج عن ممارسة قوى غير طبيعية .

ويعتقد ليمان أن هذا المعنى الأخير هو المعني الأصيل لكلمة (مانا) وعنه تفرعت المعاني الأخري لأن استعمال كلة (مانا) كصفة أو اسم ناتج عن المصدر «التأثير الخارق للعادة الذى يؤدى الى نجاح مباشر Das potenzierte ubernaturliche Konnen» . ويهمنا ان نسجل هنا أن الـ (مانا) كقوة سحرية تستدعى بذل أقصى قدر من الجهد فى سبيل النجاح ، أى ان العنصر الأساسي فيها هو النشاط الانسانى (وفى ذلك تميز آخر لها عن أساس العقيدة الدينية) .

وقد توصل ليمان بعد ذلك الى التمييز بين ثلاثة أنواع من الـ (مانا) :

(١) نوع يعمل فى محيط الانسان كقوة تؤثر في العلاقات بين الأفراد والجماعات ، ويطلق عليها السكان الأصليون اسم «مانا تنجاتا Mana Tangata» . وهذه القوة قد تصيب الفرد أو الجماعة علي السواء . فالمحاربون الذين يصيبون النجح والفوز في القتال يتمتعون بنصيب من قوة الـ (مانا) الفردية . وقد وصف تي كاوتى أحد الأبطال الذين قادوا الثورة ضد الانجليز بين قبائل الماهورى Les Maoris بأنه (مانا تنجاتا) أى الرجل الذي يتمتع بقوة لا مثيل لها . وقد تصيب هذه القوة أفراداً من أحط الطبقات فلا يلبث أن يتحقق سريانها اليهم بالنجاح الباهر الذى

(١) أشار هوبرت وموس الي بعض هذه المعاني فى بحثهما المشهور اليه آنفا . انظر L'Année Sociologique 1902.

بكلل أعمالهم وبارتفاعهم الى أسمى مكانة في المجتمع . ويحدث الانتقال من الفكرة الفردية الى الفكرة الجمعية لهذه الكلمة حين يُقصد بها السلطان والمكانة الاجتماعية اللتان تضفيان على الفرد قوة يستطيع بها التأثير على سائر أفراد المجتمع . فيقال مثلا إن هذا الرئيس أو ذاك القائد الحربي يؤثر بما وهب من (مانا) على عدد من العشائر فى نطاق معين من الأرض ، وهذا يعنى أن مجموعة الرجال الذين يعيشون داخل هذا النطاق يخضعون لسلطته وينفذون أوامره . ويفقد القائد طبعا هذه القوة وما يترتب عليها من سُلطة ونفوذ حين يُمنى بالهزيمة في الحرب أو يفشل فى أداء مهمة يتعين عليه أداؤها . وقد يفقد الرئيس أيضاً صفته كممثل لهذه الـ (مانا) الجمعية بتأثير عمل سحري يقوم به شخص آخر لانتزاع هذه الصفة منه . وقد ينشب الكفاح بين ساحرين أو مجموعه من السحرة حتى يستطيع أحدهم أن يثبت بهزيمته للآخرين أنه يتمتع بأعظم درجة من قوة الـ (مانا) ويقضى بذلك على ما كان أنداده يتمتعون به منها (PP. 33 et Suiv.) .

كل هذه الأمثلة تظهر لنا بوضوح أن الـ (ماناتنجاتا) قوة تتصل اتصالا وثيقاً بالانسان وأنها مألوفة لديه يستطيع أن يحصل عليها ويضاعفها بمجهوده الخاص كما أنه قد يضعفها أو يفقدها إذا تراخى ذلك المجهود . وهى لذلك قوة أرضية لا صلة لها بحرمة الدين وقداسته . ويدخل تأثيرها فى كل ما يقوم به الفرد أو الجماعة من عمل. وقد لاحظ ليمان — كما لاحظ من قبله كودرنجتون — الدور الذى تلعبه عقيدة الـ (مانا) فى المجهود الصناعي والحرفى لسكان ميلانيزيا وخصوصا فى صيد اللآلىء . فالصياد الذى يغوص بمهارة إلى قاع البحر ويعود سريعا محملا بصيده يتمتع بحظ وافر من قوة الـ (مانا) ويكون ذلك خير عون له في عمله يقيه شر المخاطر .

وقد جاءت بعد ذلك دراسات مالينوفسكي عن العلاقة بين العمل والسحر مؤيدة

لتلك الملاحظة . إذ يقول(١) «إن السحر والعمل عند القبائل البدائية يسيران جنبا الى جنب ولا يستغنى أحدهما عن الآخر . فالبدائيون يعتقدون أن ما يقومون به من عمل لا ينجح إلا بفضل السحر : كما أن السحر لا معنى له فى نظرهم إلا اذا كان عونا على العمل»(٢). ويقول في موضع آخر «ولا يمكن أبداً أن نشبه الساحر بكاهن يتزعم حفلة دينية ، ولكن الوصف الذى ينطبق عليه هو انه صانع تخصص فى حرفة ما تعين على أداء الحرف الأخرى»(٣). فالسحر إذن لازم لأداء أي عمل وينتظر البدائي منه ما ينتظر المتحضر اليوم من الحظ السعيد أو المصادفة الحسنة . والقيام بعملية سحرية معناه — إذا ترجمنا ذلك بلغة المتحضر — وضع الحظ فى جانبه ولذلك يستعان بالسحر خصة عند الاقدام على عمل يستدعى المخاطرة ويلوح فيه جانب الخطر(٤).

(ب) أما النوع الثانى من الـ ( مانا ) فانه خاص بالحيوان والطير والأشياء الجامدة . ويتصل هذا النوع بما يعتقده البدائيون من وجود قوة خفية منتشرة فى الطبيعة مستقلة عن إرادة الانسان وتؤثر فى الأشياء دون تدخله . وقد استنتج ليمان من هذا الاعتقاد أن الـ (مانا) ليست صفة عارضة يكسبها الساحر لما يزاوله من الأعمال بل انها في الواقع قوة حقيقية منتشرة فى كل شيء ، وإن كان الانسان لا يدري كنهها ولا يستطيع تعليلها . وتعمل هذه القوة فى محيط الحيوان والنبات والجماد دون أن يكون للانسان دخل في ذلك. ويعتقد سكان ميلانيزيا ان بعض

(١) انظر كتاب مالينوفسكي Malinowski: Argonauts of the Western Pacific.

(٢) Ibid p. 414.

(٣) Ibid. p. 142.

(٤) انظر ايضا كتاب مالينوفسكي

Myths in Primitive Psychology 1926 (p. 107-117).

صحح ليفي برول نتائج هذا البحث فيما يختص باقتصار السحر على العمل الخطر فى كتابه :

Expérience mystique et les Symboles chez les primitifs 1938.

الطيور يختص بقوة عظيمة من الـ (مانا) وأن الانسان قد يستطيع فى بعض الأحيان وبعد بذل مجهود شاق أن يتحكم فى هذه الـ (مانا) ويستخدمها في أغراضه ومصالحه (وفي هذا ما يفسر استخدام بعض الحيوانات أو بعض أنواع الأحجار فى الشعائر السحرية) .

( ج ) وهناك نوع ثالث من الـ (مانا) تختص به الأرواح والآلهة ويسمى «مانا أتوا» Mana atua . ويجب أن نلاحظ جيدا أن هذه القوة تعمل فقط فى محيط الآلهة ، أي فى كفاحها بين بعضها البعض ، ولكن لا شأن لها بالعلاقات بين الآلهة والانسان ؛ لأن الآلهة فى علاقاتها مع الانسان لا تحتاج لمزيد من القوة وصفتها الذاتية تكفي لاخضاعه والتحكم فيه .

* * *

خلاصة البحث :

يتضح مما قدمنا من وصف عقيدة الـ (مانا) واتصالها بالظاهرة السحرية أن هذه الظاهرة لا تتصل من قريب ولا من بعيد بالعقيدة الدينية . فالسحر يقوم على القوة الخفية التي يُعتقد أنها تسري فى المحيط الأرضى ، أما الدين فانه يقوم على فكرة التقديس La notion du sacré .

ونحن إذا أنعمنا النظر فيما كتب موس وهوبرت عن السحر وعلاقته بالدين ، وجدنا أنهما يميلان للفصل بين هاتين الظاهرتين ، وإن تكن هناك اعتبارات أخرى تتعلق بمبدئها الفلسفي جعلتهما يلتمسان طريقا آخر لايجاد صلة بين الظاهرتين من حيث الأصل . إذ نجدهما يقولان فى معرض المقارنة بين السحر والدين «إن الشعائر الدينية تتصف بطابع القدسية والالزام ، وانها عامة يشترك فيها الجميع وتقام في أوقات ومناسبات منتظمة . . وعلى النقيض من هذه الشعائر توجد شعائر أخرى

لا تُؤدي إلا فى الخفاء ، وذلك لأن المجتمع حرَّمها وفرض العقوبة علي من يمارسها وهى شعائر السحر الأسود Les maléfices التى يُقصد من ورائها الهدم وجلب الشر . ولكن هذين القطبين المتناقضين ، قطب التضحية وقطب الشر ، يفسحان المجال بينهما لطائفة من الظواهر التى قد يصعب تحديد طابعها الخاص لأول وهلة . وهذه هى الظواهر السحرية المباحة التى تقصد في مجموعها إلى الناحية العملية أو الفنية كالتطيب أو جلب المطر أو زيادة خصوبة الأرض الخ...»(١)

ترينا هذه الفقرة بوضوح تردد العالمين موس وهوبرت فى وصل السحر بالدين أو فصله عنه . وقد اتجها آخر الأمر الى البحث عن أصل واحد للعقيدتين ووجدا أن فكرة الـ (مانا) هى ذلك الأصل ، ولكنهم قسموها الى قسمين : نوع مقدس mana sacré هو أصل الدين ، ونوع غير مقدس هو أصل السحر . فكل ما هو مقدس أو ديني يرجع في نظرهم الى فكرة الـ (مانا) ، ولكن ليس معنى ذلك أن كل (مانا) ترتفع الى مرتبة التقديس . وقد اتجه موس وهوبرت هذا الاتجاه لأسباب تتعلق بمنهج المدرسة السسيولوجية الفرنسية ، هذا المنهج الذى يقوم على اعتبار كل ظاهرة اجتماعية سواء أكانت دينية أو سحرية ناتجة عن الضمير الجمعي أو عن القوة الجمعية .

ويميل الفيلسوف برجسن أيضا لفصل السحر عن الدين ، ويظهر ذلك جليا فى بعض فقرات من كتابه «مصدري الدين والأخلاق»(٢) ، فقد قسم فى هذا الكتاب ظاهرة التدين الى نوعين : الديانة الاستاتيكية التى تقوم علي غريزة حب البقاء والكفاح فى الحياة ، والديانة الديناميكية التي تقوم على الحدس والفناء في عالم الروح L'intuition mystique . وربط السحر بالنوع الأول أى بالديانة

(١) راجع المقال المشار اليه آنفا L'Année Sociologique 1902, p. 19.

(٢) Bergson : *Les deux sources de la morale et de la religion.*

الاستاتيكية لاتحادهما في الهدف وهو « دفاع الغريزة الطبيعي ضد ما قد يحدثه عمل العقل من خيبة أمل فى نفس الانسان» (ص١٢٧). ولكن العلاقة بين السحر والدين تقتصر فى نظره على الأساس النفسى الذي أوجد كليهما وفيما عدا ذلك لا يجد مجالا للتساؤل «فيما إذا كان السحر قد تفرع عن الدين أو إذا كان الدين قد تفرع عن السحر . فكلتا الظاهرتين معاصرة للأخرى» (ص ١٨٥) . وهو يرى أن السحر متأصل فى الانسان inné وأنه المظهر الخارجي للرغبات التي يختلج بها صدره (ص ١٧٧) ، ويمكن إرجاعه في النهاية الى عنصرين أساسيين :

(١) الرغبة فى التأثير على الأشياء المحيطة حتى ما لا يمكن أن تصل اليه يد الانسان.

(٢) الاعتقاد بأن الأشياء يسري فيها ما نستطيع أن نطلق عليه اسم « العصارة الانسانية Le fluide humain.

«وفكرة العصارة الانسانيه هذه أو بمعنى آخر فكرة الـ (مانا) ، انما هى فكرة سحرية صرفة لا علاقة للدين بها» (ص ١٨٣) وذلك لان «الدين قوامه معبودات مقدسة تسمو على قوة الانسان ، على حين أن السحر يرتكز على قوة خفية منبثة فى العالم المادى ويستطيع الانسان ان يتحكم فيها ويسيرها لأغراضه الشخصية » (ص ١٧٤ ، ١٨٣) . والسحر يدعى لنفسه الغلبة علي قوة الطبيعة ، على حين أن الدين يطلب رضا الآلهة . كما أن السحر يتميز بصفة الأنانية على حين أن الدين يقوم على إنكار الذات .

* * *

والنتيجة التى نصل اليها من هذا البحث ، أن السحر يقوم على فكرة الـ (مانا) أي اعتقاد الانسان بوجود قوة خفية كامنة في الاشياء force immanente وهذه القوة تتصل بجميع أعمال الانسان وتأتلف معه لتعاونه في حياته وخصوصا في

الناحية العملية منها . وفى هذا ما يميزها عن العقيدة الدينية التي تقوم على أساس التقديس أو العبادة ، والتقديس لا يكون إلا لقوة عليا force transcendante خارجة عن محيط الانسان .

وتعمل قوة الـ (مانا) على الأخص فى نطاق كائنات من مستوى وجودي واحد du même rang ontologique على حين أن أهم مظاهر العقيدة الدينية وجود كائن أعلى يختص بالنفوذ العلوى وكائن أسفل يتصف بالخضوع وطلب الرضا والعفو والغفران .

وانتفاء صفة العلوية عن الـ (مانا) يجعل من الممكن الاستحواذ عليها وتسخيرها بواسطة الانسان ، وليست العمليات السحرية إلا وسيلة للاتصال بهذه القوة وتسخيرها . ويمكن تشبيه الساحر فى اتصاله بهذه القوة الخفية بما ورد فى فلسفة أفلاطون عن الكائنات المؤلهة Les démiurges التى تشترك فى تنظيم العالم. ولكن ليس معنى ذلك أن الساحر يخلق هذه القوة خلقا ، فانها موجودة فى الاشياء فى حالة سبات d'une façon latente ويقتصر عمل الساحر على تحريكها وإيقاظها من مكمنها .

وقد نتج عن فكرة الـ (مانا) وما يتعلق بها من ممارسة العمليات السحرية تقوية الروح المعنوية فى الانسان او الجماعة وشعورهم بقوتهم وبنتيجة مجهودهم الذاتى. فتولد عن ذلك نوع من الاعتداد بالنفس مما ساعد كثيرا على تقدم النشاط الانسانى واتجاهه نحو الاستنباط والابتداع ، ومن السهل أن نتبين أن هذا الاتجاه لا تساعد عليه نزعة التدين ، لان الدين فوق ما يستلزم من خضوع وخشوع أمام قوة عليا من شأنه أن يشعر الانسان بضعفه وقصوره واحتياجه دائما الى عون يأتيه من فوق عن طريق الآلهة .

***

السحر والدين إذن ظاهرتان لا تتصل احـدهما بالاخرى لا من حيث النشـأة ولا من حيث الاسس النفسية التى تفسر كلا منهما . فأساس السحر هو تلك الرغبة المُلـحّة عنـد الانسان التي تدفعه للعمل وبذل الجهـد حتى يستطيع أن يتحكم في ظواهر الطبيعة ، وهذه الرغبة قد تكون مصحوبة بشيء من الوجل أو التهيب la crainte حين يقدم الانسان على مجابهة قوى لا يزال سرها مغلقاً عليه . أما أساس الدين فهو ذلك الشعور بالضعف وبقلة الانسان وبحاجته للمعـونة وما يترتب على ذلك من موقف الانتظار وطلب الرحمة ، ويصحب ذلك الشعور نوع من الفزع angoisse حينما يجد الانسان نفسه وحيـدا لا حول له ولا قوة ، ولا يخرجه من ذلك الفزع إلا أن يبتهل إلى قوة عليا ترسل اليه السلام والطمأنينة .